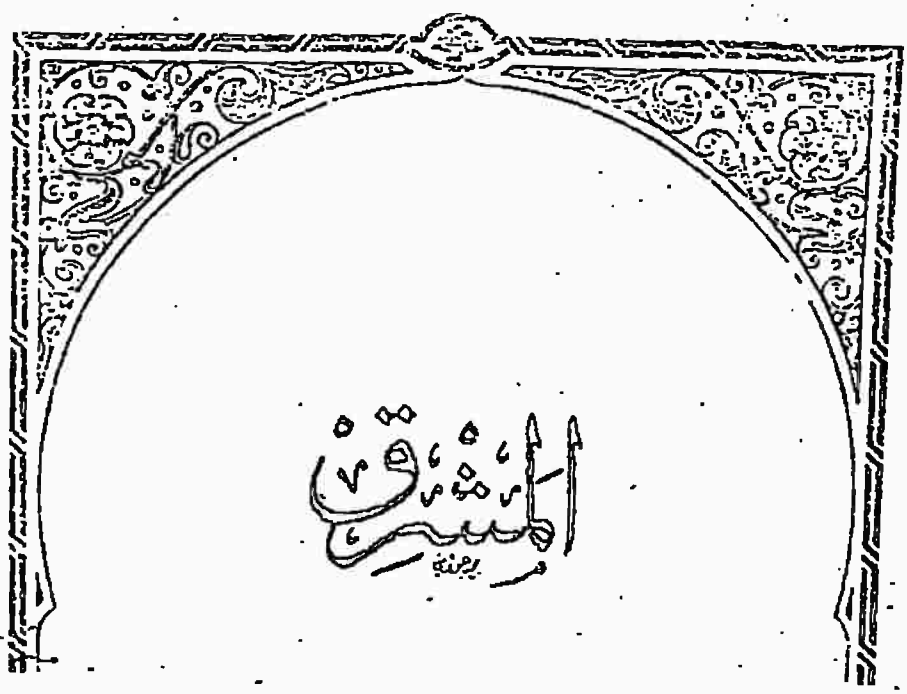

السنة الثالثة والاربعون — كانون الثاني — اذار ١٩٤٩

من الخزانة الشرقية — بقلم حبيب زيات

النساء الفرنجيات

في عهد الصليبيين

صح ان احق ما يؤخذ على المؤرخين الاوربيين ، في ما دوّنوه من اخبار الصليبيين ، أنهم اجتزأوا منها برواية الوقائع والانباء التي كانت تذهب بالممالك والنفوس والاموال ، وزهدوا في كل ما عداها من اوصاف الاعداء في اوقات السلم . فالناظر اليوم في كتبهم لا يكاد يدري ، في ما عدا الحروب والملاحم ، شيئاً يُذكر من جوار الفرنج لاهل البلاد ، وتأثير فريق منهم في الآخر في وجوه المعيشة والمجتمعات والابنية والمساكن والمآكل والمشارب واللهجات واللغات والصناعة والزراعة ، الّا بعض اشارات يسيرة ونكات معدودة وردت عرضاً في حكايات بعض المعاصرين ، نظير ابن جبير في رحلته ، والامير اسامة بن منقذ في كتاب « الاعتبار » .

وقد اقتصر الامير اسامة على ذكر بعض النساء الصليبيات بما لا يجمل ايراده ، ولم يتعرض ، مع كثرة من رآه منهن ، لوصف جانب مما انفردن به من خلق وخلق ، وأغرين فيه من هيئة وشارة . ولا شك انه ، لو كانت سلمت لنا دواوين الشعراء الذين ساكنوا الصليبيين وخالطوهم في كل عذه الحقبة الطويلة ، وتُرجم منا متناولها ، لوجدنا في بعض قصائدهم وابياتهم نُتفاً من اوصاف ذلك العصر تكشف عما كان فيه من حضارة وفن ومصطلح وزي .

واوحد من وقع الينا بعض شعره ، وانفرد فيه بذكر النساء الفرنجيات ، ابو عبدالله محمد بن نصر القيسراني الكاتب . وقد وقفنا على جزء منه سماه «الغربيات» في ديوان اختاره بنفسه من نظمه محفوظ في دار الكتب المصرية ، وسيأتي وصف هذا الديوان فيما بعد ، حرصنا فيه على نقل كل ما رواه من هذه الغربيات . ولم يقتصر فيها على وصف الغواني الفرنجيات في الطرقات وطاقات المنازل ، بل الم من اجلهن بالبيع والكنائس كعادة اضرابه في ديار الاسلام من طروق الاديار والمعابد ، ايام الاعياد والاعياد ، لاجتلاء ما فيها من الوجوه الحسان . وكان في انطاكية عدة كنائس منها كنيسة السيدة لنصارى انطاكية خاصة دون الافرنج ، وكنيسة بربارة للافرنج خاصة ، وكنيسة اشونيث الغربية (كذا) ، وكنيسة القسيان (القديس بطرس) ، وهيكل المكشوف ولا ندري لمن هو ، وتنزل بكل من شاهده فيهن :

من كل بيضاء مبجة ما عندها البدر بموصوف

ولما طاف المدينة أعجب بما عاينه فيها من القصور الفخمة الشاهقة والابنية الحسنة والمنازل المزخرفة ، وشاهد في كل شباك منها مليحة سافرة تطل بوجه يرقمه الحياء :

ترى قصوراً كأنها يمم ناطقة في خلالها الصورُ
حالات طاقاتهن آهلة يبسم في كل حالة قمرُ
سوافر كلما شرزن بنا برقعهن الحياء والخفرُ

ووصف بعضهن بسواد الشعر وطول الضفائر ، ولا شك انهن كن رومیات لان الفرنجيات اكثر ما يذكرن حاة بزرقة العيون كقوله يشبب باحداهن :

لقد فتنتني فرنجيةٌ نسيم العبير بها يعبقُ
ففي ثوبها غصن ناعمٌ وفي تاجها قمر مشرقُ
وان تكُ في عينها زرقة فان سنان القنا ازرقُ

يريد بالتاج ما كانت تعقده من غدائرها فوق رأسها . وكان لهنّ تحت هذا التاج طُرر يصففنها فوق الجبين ، واصداغ يُرسلنها من جانبي الخدين كالزرقين اي كالحلقة . وكان هذا التاج عامًّا فيما يظهر للفرنجيات والروميات كما يؤخذ من قوله :

وسبتني لها ذوائبُ شعرٍ عقدتها تاجًا على ابرواز
من معيني على بنات بني الاصفر غرًّا فانني اليوم غارِ

يريد بابرواز الملك كسرى ابرويز . وكان لنساء الروم والفرنج ولعٌ خاص وعناية غالية بالتفنّن والتزيّن بالشعور :

سمنَ بين سكنٍ يوت شعر فابرزنَ المحاسن في الشعورِ
وامرجن النواظر في وجوهٍ مترّعة الخدود عن الخدورِ
تريك الحسن غير مبرقعاتٍ الا ما في البراقع من غرورِ
فلو خادعتَ طرفك لم تعرّج بسه الّا على قمر منيرِ
فدعني من منازلة البوادي فلي شغل بسكان القصورِ

ووصف في كنيسة القسيان راهبة حسناء رومية قصيرة الزنار طويلة جيل العاتق متشحة بالسواد ، تحكي ثيابها غدائرها باللون ، اذا صحّ انه كان لها غدائر فقال فيها :

كمْ بالكنائس من مثلة مثل الهاة يزينها الخفرُ
من كل ساجدة لصورتها لو انصفت سجدت لها الصورُ
قدّيسة في حيل عاتقها طول ، وفي زنارها قصرُ
غرس الحياء بصحن وجنتها وردًا سقى اغصانه النظرُ
وتكلمت عنه الجفون ، فلو حاورتها لاجابك الحورُ
وحكت مدارعها غدائرها فأراك ضمني ليله بقرُ

وكانت انطاكية قديمًا موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير[1] . ولما استولى الروم والفرنج عليها انضمّ الى

١) معجم البلدان لياقوت ١ : ٢٨٣

هذا الطيب جودة الخمر والشراب ، فكان كل من اراد معاقرة المدام في ما جاور من ديار الاسلام يقصد انطاكية للتمتع بلذاتها . ولذلك قال ابو العلاء فيها :

لا يقرلنَّ بانطاكيةَ ورعٌ كم حلَّل الدينَ عقدٌ للزنانير
فيها مدام كذوب النار تزجره المشاربين وجوه كالدنانير (١)

فلا عجب اذا كان القيسراني اراد انتهاز فرصة وجوده فيها لانتهاب اوقات الطرب والقصف . وكان فيها وقتئذٍ من جملة القيان المشهورات بالحسن والاحسان جارية تروي الشعر العربي اسمها ماريًا تغني بالدف خفيفة الروح في نهاية اللطف . ومن اصواتها التي تغايظ بها النصارى وتستميل قلوب المسلمين:

علقتُ بجبل من حبال محمد أمنتُ به من طارق الحدثانِ

ولا يخفى ما في هذا البيت من التعريض باسم النبي العربي واسم القيسراني محمد وهو من قصيدة للحسن بن هانئ يمدح بها الامين ابن الرشيد اولها:

لمن طال لم أشجو وشجاني وهاج الصبا لو هاجهُ لأوانِ .

وبعد ان تقضى القيسراني اطيب ايام في هذه البلدة الجامعة طيب الهوائين ، انكفأ راجعاً وفي فؤاده نيران الحسرات تفور ، وتذكّر ساعات مرّت له مع ماريًا فانشد فيها :

ألا يا غزال الشعر هل انت منشدي « علقت بجبل من حبال محمد » . . .

❖

ولابن جبير في النساء الصليبيات وصف اوفر غناء واتم شرحاً حكى فيه زفاف عروس فرنجية شهده اتفاقاً لما كان في صور سنة ٥٨٠ / ١١٨٤ في شهر شتنبر = ايلول ، قال :

« من مشاهد زخارف الدنيا المحدثة بها زفاف عروس شاهدناه بصور في احد الايام في ميناتها وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساءً واصطفوا صاطين عند باب العروس المهداة والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنها من ذوي ارحامها وهي في ابهى زيّ وافخر لباس تسحب اذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفّت شبكة ذهب منسوجة وعلى لبتها مثل ذلك منتظم وهي رافلة في حليها وحُلاها تمشي فترًا في فتر مشي الحمامة او سير النعامة تميز بشيء من فتنة الناظر . واما ما جلّة رجالها من النصارى في افخر ملابسهم البهية تسحب اذيالها خلفهم ووراءها اكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات

(١) الفردسيات ، طبعة بومباي ، ١٥٣

يتهادين في افخر الملابس ويرفلن في ارفل الحلى والآلات اللهوية قد تقدمتهم والسائرون وسائر النصارى من النظّار قد عادوا في طريقهم ساطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك . فساروا جاحتى ادخلوها دار بيلها واقاموا يومهم ذلك في وليمة فأدّانا الانفاق الى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستهاذ باقه من الفتنة فيه . »(١

ولا يخفى على احد ما في مثل هذا الوصف على ايجازه واجماله من الطرافة والندرة لصدوره عن قلم عربي تعوّد غالباً قلة الاعتداد بكل ما لا يتعلق بأمّته ومِلّته ، والنفور والتعوّذ من كل ما يمرّ به من المشاهد والاحوال بين اهل الكتاب في ايامه . وقد احسن غاية الاحسان في موضع آخر في رحلته بالتنبيه على ما لم ينبّه عليه احد قبله من ولع الفرنجيات بتقليد النساء المسلمات في التزيي والتنقب والتحلي والتخضّب والتعطّر . وهو ما يجب ان يُضاف الى جملة ما كان الغربيون وقتئذٍ يحرصون على استعارته من مذاهب الحضارة الشرقية ووجوه المعيشة وطرق الصناعة والزراعة في المدن السورية . وقد نعت ابن جبير ما عاينه من هذه العواري في البلاد الفرنجية ايضاً فقال في كلامه على مدينة بالرمة وقد وافق اجتيازه بها عيد الميلاد :

«وزيّ النصرانيات في هذه المدينة زيّ نساء المسلمين فصيحات الالسن بالتحفات متنقبات خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن المُحُف الرائقة وانتقبن بالنُقُب الملونة واتتلن الاخفاف المذهبة وبَرَزْنَ لكنائسهنّ او كُنُسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلّي والتخضّب والتعطّر فتذكرنا على جهة الدعابة الادبية قولَ الشاعر :

ان من يدخل الكنيسة يوماً يلقَ فيها جآذراً وظباءَ

ونعوذ باقه من وصف يدخل مدخل الغرر ويؤدّي الى اباطيل الاثر ، ونعوذ به من تقييد يؤدي الى تفنيد انه سبحانه اهل التقوى والمغفرة »(٢

وليست هذه اول مرة استهاذ فيها ابن جبير من فتنة ما شاهده او عرفه بنفسه اثناء مروره ببلاد الصليبيين . ولا بأس ان ننقل هنا قولاً له سابقاً في احوال المسلمين العائشين في ذمة الفرنج بين قبرص وعكة حين مرّ بهما . وهو ، وان يكن غير داخل رأساً في اوصاف النساء الصليبيات ، غير انه يتصل بها باقرب سبب لمشاركتهنّ الرجال في التدبير والسياسة في اغلب الاحوال .

(١ رحلة ابن جبير ، طبعة ليدن ٢٥٠ - ٢٥٦

(٢ رحلة ابن جبير ٢٣٣

وكان الملك العادل سيف الدين ، شقيق صلاح الدين ، لا يجهل ذلك منهن فاذا اراد ان يُقعد رجالهن عن الحرب احياناً يتزلف لديهن ببعض التحف من الحلي والحلل الدمشقية التي كنّ معجبات بها.[1]

وغاية هذه النبذة اليسيرة من كلام ابن جبير وصف جانب من احوال المجتمع الفرنجي الاسلامي ، ومخالطة المسلمين للصليبيين في بلادهم ، وفيه خير شاهد على ما كان بين الفريقين من حسن الجوار وما امتاز به خصوصاً رؤساء الفرنج من الرفق بمن كان تحت ايديهم من البلديين والمستوربين ، ومعاملتهم لهم بغاية العدل والسماح والبعد عن كل تقور وتعصب ، ولا شك انه كان للمرأة الصليبية في هذه المعاملة نصيب وافر في الشفقة على المرأة الذمية . وهذا نص كلام ابن جبير وهو حري بالتروي والاعتبار قال :

« رحلنا من تنيس ، وبشرها الله ، سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون وهم مع الافرنج على حالة ترفيه تعوذ بالله من الفتنة . وذلك انهم يؤدون لهم نصف الغلة عند اوان ضمّها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يتعرضونهم في غير ذلك . ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها ايضاً . ومساكنهم بأيديهم وجميع احوالهم متروكة لهم وكل ما بأيدي الافرنج من المدن ساحل الشام على هذه السبيل رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع وقد أشربت الفتنة قلوب اكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من اهل رساتيق المسلمين وعمالهم لانهم على ضدّ احوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الشارنة على المسلمين ان يشتكي الصنف الاسلامي جور صنفه المالك له ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس بعدله فالى الله المشتكى من هذه الحال »[2]

ولا يخفى على احد قدر هذه الشهادة من رجل كان ينظر شزراً الى الصليبيين ويوسمهم شتماً ولعناً ، ويدعو على حصونهم وبلادهم بالدمار ، وعليهم بالخذلان ، ومع إقراره بما كان عليه صاحب عكة من الاعتدال في سياسة المسلمين والرفق والتؤدة لم يتوقف عن وصفه بالملك « الخنزير الملعون » ووصف امه « بالخنزيرة »[3] وامثال هذا الحقد والبغض طافحة في آثار العصور الوسطى في الغرب والشرق .

١) الخزانة الشرقية ٣ : ٣٦

٢) رحلة ابن جبير ، طبعة ليدن ، ٣٠١ — ٣٠٢

٣) رحلة ابن جبير ٣٠١ و ٣٠٢